آفاق قرآنية

في رحاب سورة ﴿التكاثر﴾

الاستاذ عز الدين سليم

❑ بسم الله الرّحمٰن الرّحيم: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

تمهيد:

رغم أنّ المصاحف التي يتداولها المسلمون في ديارهم تؤكّد غالباً أنّ سورة التكاثر المباركة هي سورة نزلت في مكّة المكرمة، وحتّى الكثير من التفاسير تتبنّىٰ ذلك إلاّ أنّ الآثار الشريفة الواردة عن رسول الله (ص) و أئمة المسلمين

عليهم السلام وصحابة النبي الصالحين رضوان الله عليهم تؤكد في الأعم الاغلب ان السورة نزلت في المدينة المنورة.

فمن الآثار التي تؤكّد نزولها في المدينة، مايلي:

(قيل نزلت السورة في اليهود، قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان ألهاهم ذلك حتّىٰ ماتوا ضلالاً .. عن قتادة.

وقيل نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا - عن أبي بريدة.

وقيل نزلت في حيّين من قريش: بني عبد مناف بن قصي وبني سهم بن عمرو تكاثروا، وعدّوا أشرافهم، فكثرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا نعدّ موتانا حتى زاروا القبور، فعدّوهم، وقالوا هذاقبر فلان، وهذاقبر فلان فكثرهم بنو سهم لأنهم كانوا اكثر عدداً في الجاهلية عن مُقاتل والكلبي)[1]

ويبدو أنّ المصاحف، وبعض المفسرين قد دأبوا على وضع هذه السورة في عداد السور المكية نتيجة لتطبيق المواصفات العامة للسور المكّيّة عليها من ناحية قصر السور والآيات، وجزالة الألفاظ، وما إليها من مواصفات تبّتها العلماء في دراساتهم.[2]

إلاّ أنّ الآثار المعتبرة التي تتوفّربين أيدينا تميل بنا الى اعتبارها (مدنية)،[3] كما لاحظنا قبل قليل.

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن / العلاّمة أبوعلي الفضل بن الحسن الطبرسي من علماء القرن السادس ج ١٠ تفسير سورة التكاثر ص ٥٣٣ - ص ٥٤٣ و مثله تفسير الميزان / للسيد المرحوم محمد حسين الطباطبائي (تفسير سورة التكاثر) - البحث الروائي، كما يراجع الكشاف / للامام الزمخشري وتفسير الجلالين ص ٨١١ .

(٢) راجع علوم القرآن لسماحة السيد محمد باقر الحكيم ص ٤٥ وما بعدها.

(٣) في مجمع البيان / ذكر (انها مدنية و قيل انها مكية) .

الأهداف العامة لسورة التكاثر:

من أبـرز أهـداف هـذه السورة ذات الآيات الثماني، أنها تندّد بحالة اتخاذ الحيـاة الدنيـا هدفاً بذاتها والتكاثر بزخارفها الزائلة من مال وأولاد، وسلطان، وقوة مادية وما إليها، والاستغراق بالتعلّق بمتاعها المحدود، وعرضها الذاهب.

إنّ هـذه السـورة الكريمة الجليلة، تحمل دعوة صريحة مدوية للسادرين في غيهم، التـائهين عن درب الحقّ، المخـدوعين بالمظـاهـر الزائفة، أن يستيقظوا من غفلتهم، وأن يفتحـوا عيونهم التي يشدها النوم عن رؤية الواقع ليتذكروا أنّ الدنيا شـوط قصيـر ينتهي الى الآخـرة، التي هي الحيـاة البـاقية التي سيؤول إليها العباد، حيث سينـال الغـافلـون السـادرون في غيهم، عـذاب الجحيم، فيغمـرهم الـذل والخسـران اذ لا ينفع يومـذاك مال، ولا ولدان، ولا سلطان، ولا قوة ... حيث تعقد محكمة العـدل الالهي جلساتهـا لتسـأل العبـاد عن كلّ نعمة شُغِلـوا بهـا عن اللـه عزّوجل، سواء أكانت نعمة مادية أو معنوية ...

إنّهـا دعوة مفتوحة صريحة للتائهين لكي يعودوا الى رشدهم، ويؤوبوا الى الله ربهم تبارك وتعالى.

تفسير الآيات:

﴿أَلْهَـاكُمُ التَّكَاثُـرُ﴾ : أي شغلكم عن طـاعة اللـه عـزّوجل وعن ذكـر الآخرة التكاثر بالأموال والأولاد، والتفاخر بكثرتها.[1]

---

(١) مجمع البيان / الشيخ الطبرسي (تفسير سورة التكاثر).

واللهـو: ما يشغل الانسان عمّا هو أهم لأمره، ومصاديق مايتكاثر به الانسان الساهي الغافل عن الله تعالى كثيرة جداً، فقد يتكاثر الإنسان ويتباهى ويتفاخر بالمال أو الجاه أو رجال العشيرة أو حزبه أو قومه أو أولاده أو ما إلى ذلك من عدّة الحياة الدنيا.

ومن هنا، فانّنا نجد أنّ الآية تفسرها النصوص الشريفة بعدد من هذه المصاديق وليس بمصداق واحد، من قبيل مارواه قتادة عن مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه، قال: انتهيت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: ﴿أَلْهَـٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: يقول آبن آدم مالي مالي، ومالَكَ إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدّقتَ فأمضيتَ» أورده مسلم في الصحيح.(١)

ويقول أميرالمؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام حول مفهوم التكاثر في السورة مايلي: «التكاثر لهو وشغل واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير»(٢)

وقد روي في معنى الآية، أنها جاءت رداً على تكثّر اليهود وتفاخرهم بعدد رجالهم وأشرافهم، حيث قالوا: نحن اكثر من بني فلان وبنو فلان اكثر من بني فلان.(٣)

وقد ذكر بعض من المفسرين أنها جاءت رداً على تكاثر وتباري بني عبدمناف وبني سهم في عدد رجالهم، فكثرهم بنو عبدمناف.(٤) فنزلت السورة تندّد بهذا الاتجاه الغافل البليد.

وهكذا، فأن الانشغال بالتكاثر بزينة الدنيا عن الله عزوجل والحياة الباقية هو

---

(١) رواه الطبرسي في مجمع البيان عن صحيح مسلم، كما رواه تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٠.
(٢) تفسير نور الثقلين ج ٥ ص ٦٦٠.
(٣) مجمع البيان ج ١٠ ص ٥٣٣.
(٤) تفسير الكشاف للزمخشري (تفسير سورة التكاثر)

المحور المركزي للهجوم والتنديد.

﴿... حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾: أي شغلكم التكاثر والتباري بعدّة الحياة الدنيا حتى فاجأكم الموت ووسّدتُم الثرى في مقابركم، كما هو عن الحسن البصري وقتادة.

ومن اعتمد من المفسرين على الرواية القائلة بنزولها في تفاخر بني عبدمناف وبني سهم في رجالهم وأشرافهم، حتى ذهبوا إلى المقابر يعدّون قبور موتاهم ... من اعتمد هذه الرواية قال: حتى زرتم المقابر لعدّ الموتى والتفاخر بهم.[1]

لقد قرأ أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فقال عليه السلام معلقاً على مدلولها بكلمات تقطر حكمة ويقيناً ودلالة:

(يا له مراماً ما أبعده.[2] وزوراً ما أغفله. وخطراً ما أفظعه. لقد استخلوا منهم أيّ مدّكر[3] وتناوشوهم من مكان بعيد أبمصارع آبائهم يفخرون. ام بعديد الهلكى يتكاثرون. يرتجعون منهم أجساداً خوت[4] وحركات سكنت ولأن يكونوا عبراً أحق من أن يكونوا مفتخراً ولأن يهبطوا بهم جناب ذلة أحجى من أن يقوموا

---

(١) كما هو عن العلامة الزمخشري في الكشاف ج ٤ (تفسير سورة التكاثر).

(٢) المرام الطلب بمعنى المطلوب والزور بالفتح الزائرون وهم يرومون نيل الشرف بمن تقدمهم وتلك غفلة. فانما ينالون الشرف بمايكون من موجباته في ذواتهم فما أبعد ما يرومون بغفلتهم.

(٣) استخلوهم أي وجدوهم خالين والمدكر الإدكار بمعنى الاعتبار أى خلوا أسلافهم من الاعتبار ثم قلب المعنى في عبارة الامام فكان أخلوا الادكار من آبائهم مبالغة في تقريعهم حيث أخلوهم منه وهو محيط بهم وأي صفة محذوف تقديره مدّكر و تناوشوهم تناولوهم بالمفاخرة من مكان بعيد عنها.

(٤) خوت: سقط بناؤها وخلت من أرواحها.

بهم مقـام عـزّة[1] لقد نظروا اليهم بأبصار العُشوة[2] وضربوا منهم في غمرة جهالة. ولـو استنطقـوا عنهم عرصات تلك الديار الخاوية[3] والربوع الخالية لقالت ذهبوا في الأرض ضـلالاً وذهبتم في أعقابهم جهّالاً. تطأون في هامهم[4] وتستثبتون في أجسـادهم وترتعـون فيمـا لفظـوا، وتسكنون فيما خرّبوا وانما الأيام بينكم وبينهم بواكٍ ونوائحُ عليكم.)[5]

﴿كَـلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: كلاّ حرف تستعلمه العـرب للـردع، اي ليس كمـا تذهبـون - ايها الغافلون، المتكاثرون بزخرف الحياة الدنيا، فسوف تعلمون عاقبة تباهيكم وتفاخركم، وكبريائكم إذا نزل بكم الموت اذ ترون عذاب القبر، وعذاب الحشر معاً كما ورد عن علي بن ابي طالب (ع).[6]

ويقول الحسن البصري ومقاتل: انه وعيد بعد وعيد ...

وهـو كذلك فهو تحذير بعد تحذير من مغبة أعمالهم وسوء أفعالهم، وهذا التكـرار يشكّل تهديـداً مؤكّـداً من جبـار علي كبيـر لا يفوته هارب، ولا يعزب عنه مثقـال ذرة في الارض ولا في السمـاء، انـه اللـه العزيـز الجبار ذوالقوة، الفعّال لما يريد، الذي يرجع الخلق اليه كله.

﴿كَـلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾: لو تعلمون الحقيقة علماً يقينياً لشغلكم

---

(١) أحجى أقرب للحجى أى العقل فان موت الآباء دليل الفناء، ومن عاقبته فناء كيف يفتخر.

(٢) العُشوة ضعف البصر.

(٣) الخاوية المنهدمة والربوع المساكن، و الضّلال كمشّاق جمع ضال.

(٤) جمع هـامة أعلى الـرأس وتستثبتـون أي تحاولون اثبات ما تثبتون من الاعمدة والاوتاد والجدر أن في أجسـادهم لذهابها ترابا وامتـزاجها بالارض التي تقيمـون فيهـا ما تقيمـون، ترتعون تأكلون وتتلذذون بما لفظوه أى طرحوه وتركوه.

(٥) بـواكٍ جمع باكية ونـوائح جمع نـائحة وبكـاء الايام على السابقين واللاحقين حفظها لما يكون من مصابهم.

(٦) نهج البـلاغة / أميـرالمـؤمنين علي بن ابي طالب (ع) شرح المرحوم الشيخ محمدعبده مفتي الديار المصرية سابقا، المكتبة التجارية، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

يقينكم بالله تعالى واليوم الآخر عن التفاخر و التباهي.

والمراد بعلم اليقين، هو العلم الذي يثلج الصدر، ويملأ النفس رضىً وقناعة بعد اضطراب الشك فيها.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: الرؤية الأولى لجهنم تكون قبل القيامة، حيث تعرض للمجرمين. أمّا الرؤية الثانية، فهي دخول المجرمين النار مباشرة، حيث يرونها بالمشاهدة الحسية، محض اليقين، بعد أن يذوقوا العذاب ويحسّوا بالخسران والمذلة، وعين اليقين هو محض اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾: والآية تؤكّد أنّ العباد يُسألون يوم القيامة عن مطلق النعمة التي أنعمها الله عزّ وجل عليهم، فكل ما يصدق عليه أنه نعمة على الانسان يسأل الله تعالى الانسان عن شكره لله تعالى عليها وعدم كفره سواء أكانت هذه النعمة مادية او معنوية...

صحيح أنّ الله عزوجل لا يمنّ على عباده بما يعطيهم، لأنه أكرم وأجل من أن يعطي نعمة ثم يمنّ بها على عباده، ولكنه جلّ وعلا لا يرضى لعباده أن يكفروا النعمة، وينفقوها فيما لا يرضىٰ به الله عزوجل ...

وقد كثر الحديث حول (النَّعِيمِ) الذي يسأل عنه العباد، وكلّ ذلك من باب تعداد المصاديق.

فقد قال قتادة: إنّ الله سائل كلّ ذي نعمة عما أنعم عليه.

وقال سعيد بن جبير (رض): النعيم المأكل والمشرب وغيرهما من الملاذ.

وقال عكرمة: هو الصحّة والفراغ، وقد ورد عن ابن عباس عن النبي (ص) قوله: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ ...

وقالوا: النعيم هو الأمن والصحة، قال ذلك عبدالله بن مسعود (رض) ومجاهد، وروي في معناه عن الإمام محمدبن علي الباقر وولده جعفر بن محمد

الصادق(ع).

وورد في السُنّة النبوية الشريفة، أنّ بعض الصحابة أضافوا النبي (ص) فوجدوا عنده تمراً وماءً بارداً، فأكلوا، فلما خرجوا قال (ص): هذا من النعيم الذي تُسألون عنه.[1]

وورد عن بعض أئمة المسلمين: إنّ النعيم هو النبي وأهل بيته الطاهرون عليهم السلام وحول ذلك جرى حوار دالّ ممتع بين الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) والامام النعمان بن ثابت (أبو حنيفة)، وكانا قد عاشا في فترة واحدة ـ وهذا نصه:

«سأل ابو حنيفة اباعبدالله (ع) عن هذه الآية، فقال له: ما النعيم عندك يا نعمان قال: القوت من الطعام والماء البارد فقال: لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها وشربة شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه قال: فما النعيم جُعلت فداك قال: نحن أهل البيت، النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين وبنا ألفّ الله بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، بنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم الله به عليهم وهو النبي (ص) وعترته.[2]

وفي هذا المضمون وردت عدة آثار. عن ائمة المسلمين عليهم السلام نذكر منها:

عن محمد بن يعقوب باسناده عن أبي حمزة قال: (كنّا عند ابي عبدالله(ع) جماعة فدعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة وطيباً وأتينا بتمر ننظر فيه أوجهنا من

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن / للشيخ أبي علي الطبرسي (تفسير سورة التكاثر).

(٢) نفس المصدر وتفسير نور الثقلين / للشيخ المحدّث عبد علي الحويزي العروسي (تفسير سورة التكاثر).

صفائـه وحسنه، فقال رجل: لتُسئلن عن هذا النعيم الذي تنعّمتم به عند ابن رسول اللـه (ص)، فقـال ابو عبداللـه (ع) إنّ الله عزّ وجل أكرم وأجل أن يطعمكم طعاماً فيسوغكموه ثم يسئلكم عنه، ولكن يسئلكم عما أنعم به عليكم بمحمّد (ص) وبآل محمد عليهم السلام)[1]

ـ وعن أبي خالـد الكابلي قـال: (دخلت على أبي جعفـر (ع) فدعا بالغداء فـأكلت معـه طعامـاً ما أكلت طعاماً قط أطيب منه ولا أنظف، فلما فرغنا من الطعام قـال: يـا أبـا خالـد كيف رأيت طعامك أو قال طعامنا، قلت: جُعلت فداك ما رأيت أطيب منـه قط ولا أنظف ولكني ذكـرت الآية في كتاب الله عزوجل ﴿**ثم لَتُسئَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النّعِيمِ**﴾ قال ابو جعفر (ع): إنّما يسئلكم عما أنتم عليه من الحقّ.[2]

وهكـذا يكـون النبي (ص) وأهل بيتـه عليهم السـلام والقـرآن الكريم والشريعة، والهـدى الى الحقّ وأمثال ذلك من معالم الحق أهم مصاديق النعمة التي يسأل عنها العباد يوم القيامة.

فمن ضيّع القرآن الكريم، فهو مسؤول عن ذلك.

ومن كفر شيئاً من الحق والفرائض، فهو مسؤول.

ومن ضيّع حق النبي وأهل بيته، فهو مسؤول.

ومن ضيع حق الصحابة الاخيار فهو مسؤول.

والعاقبة للمتقين والحمدلله رب العالمين.

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.

---

(١) تفسير نور الثقلين: المصدر السابق ح ٥ ص ٦٦٢.

(٢) نفس المصدر ح ٥ ص ٦٦٢

المصادر التي استفدنا منها:

١ – القرآن الكريم.
٢ – الميزان في تفسير القرآن / العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (رض).
٣ – الكشّاف / للعلامة الزمخشري.
٤ – مجمع البيان في تفسير القرآن / للشيخ ابي علي الطبرسي.
٥ – تفسير نور الثقلين / للمحدث عبد علي جمعة العروسي.
٦ – في ظلال القرآن / سيد قطب.
٧ – تفسير شبر / سيد عبدالله شبر.
٨ – علوم القرآن لسماحة السيد محمدباقر الحكيم.